

الانتقال السلمي

لقد كتبت هذه المقالة فى التاريخ المثبت فى صلب الموضوع بعد توقيع إتفاقية السلام و قد كنت فى إجازة قصيرة فى لندن وبعثت بها مع عدة مواضيع الكترونيا الى مكتب التحرير و نشر البعض و مازالت تنتظر وحتى لا تبدو وكأنها تغرد خارج السرب أو تسابق الأحداث بأثر رجعى فى السياق الزمنى أثرت أن أكتب هذه المقدمة... تقول:

أليس من الغريب والمدهش حقا ان يمر الحدث التاريخى الذى يعيش فيه السودان هذه الأيام.. والميلاد الجديد لأحد اكبر اقطار أفريقيا.. القارة التى تمثل حلم و هاجس عالم اليوم .. القارة التى اعيد اكتشافها من جديد فى "النظام العالمى الجديد" وسط كل هذه الأهمية السياسية والجغرافية والإقتصادية أن يمر هذا التحول "الجيوپوليتيك" فى الإعلام العربى دون الأهمية التى يستحقها فى وقت تنهافت فيه القنوات الفضائية على تحليل نتائج انتخابات بقايا دول الاتحاد السوفيتى المنفرطة من عقد المنظومة الاشتراكية المنقرضة.

هل كان يصدّق أحد فى كل هذه الفضائيات أن تنتصر إرادة شعب خاض حربا أهلية مفروضة عليه على مدى نصف قرن ثم إنتصر على مراهنة الإعداء فى التقسيم والإنفصال لا الوحدة حتى ولو كان من خلال فترة إنتقالية .. لأن مصائر الشعوب لا تتم صياغتها بقرار سياسى من قمة الهرم أو مرسوم سيادى من رأس الدولة وإنما بتفاعل القيم التى من أجلها رفع السلاح ثم انصهار هذه القيم فى بوتقة واحدة من الحرية والعدل والمساواة .. وهذا لا يتم بين عشية وضحاها ولا يختصر فى شهور ولكنه عملية ولادة جديدة واستتساخ مشروع وحدوي فريد يستغرق وقتاً من الأخذ والعطاء .. والشد والجذب .. والرفض والقبول .. والإتفاق والإختلاف بأكثر مما حدث فى ماراتون المفاوضات خلال سنوات طويلة..

وعلى عكس ما يعتقد المتشائمون فإن طول الفترة الإنتقالية يعطى فرصة ضرورية لبلورة و نضج المفاهيم و إعادة صياغة المواقف الخاطئة وتصحيح الصورة المغلوطة فى الأذهان أو الاحزان المنحوتة فى الوجدان .. وهذا كله يحتاج الى زمن .. ونهاية حرب امتدت نصف قرن .. لا يضيرها ان تنضج على نار هادئة خلال نصف عقد من الزمن وهذا منطق التعامل مع القضايا الخلافية فى سيكولوجية العلاج النفسى المعرفى والادراكى الذى يهدف الى تحويل وتبديل الأعراض المرضية الى أفكار صحية تعطى الفرد بصيرة نافذة ورؤية أكثر شفافية فى التعامل مع ضغوطات الحياة .. وتمنح المواطن مهارات أساسية فى ترسيخ متطلبات السلام.

إذن لا بد من الإتفاق على صنع السلام .. لا فرض السلام فالأول يتم بقرار والثانى يتحقق بخيار .. الخيار الأفضل من بين بضع خيارات تخضع للدراسة والمناقشة والتداول بين الجميع.

إن من أكبر تجارب فشل السلام الذى يفرض من الداخل أو الخارج أن لا يتعامل و لا يتفاعل مع القاعدة.. فاتفاقية 1970م فرضت السلام من أعلى ولكنه لم يؤسس له فى البنية التحتية .. فجاء بقرار قمة وانتهى بقرار قمة .. لم يحظ بإجماع الشعب ولم يخضع لإستفتاء ولم يتم فى ظل مباركة إقليمية و دولية .. ورغم الحساسية المشروعة من هذه التداخلات المشبوهة إلا أنه فى عالم اليوم أصبحت كالمح للطحام و أشبه بقناعة لا خيار لمن لا يختار. وليس فقط لأنها قد تساعد فى الوصول الى سلام ولكنها تصبح من أكبر مقومات صنع السلام .. والعالم اليوم ملئ بهذه الشواهد فى أركانه الأربعة.

والآن هذه الفرصة الأخيرة تأتي بضمانات داخلية ودولية وأهم من هذا تتضح فى مناخ نفسى داخلى وتعيش بين ضلوع الوطن الحبيب حتى تجئ (نعم) هنيئة، أم (لا) مريحه وهذا يتوقف على قدرتنا على تغيير نمط حياتنا وأسلوب تفكيرنا .. وإعادة صياغة مفاهيمنا الموروثة والمكتسبة بكثير من القناعه والرضا .. لكي يتم الإنتقال السلمى للسلطة.

وما دمنا نتحدث عن اقتسام الثروة وتداول السلطة وتحقيق الاصلاحات فإن كل هذه المفاهيم قد تصبح فارغة من محتواها منقوصة فى معانيها إن لم تستوعب كل قطاعات الشعب بكل أعراقه ودياناته وكياناته فى منظومة تضع نصب أعينها أن العالم اليوم يسعى الى تغيير الكيانات الصغيرة وبعثرة القوميات الضعيفة الى جزئيات وفتات يسهل التحكم فيها وتشكيلها فى قوالب يصنع منها دويلة أو مسخ دولة .. أمة أو أمية .. عقيدة أو عقدة .. لأن الكل ليس مجموع الأجزاء كما تقول مدرسة الجشتطالت "فى علم النفس": انك تستطيع أن تصنع من مجموعة المكعبات اشكالا عديده مختلفه المضامين وان كانت من نفس الجزئيات .. و بنفس الفهم، تصنع من جزئيات الجغرافيا مسخ دولة ومن فتات القوميات أمة مشوهة.

وحتى لا نقع فى هذه المصيدة مثلما تجاوزنا القرارات الدولية وبالونات إختبارات الشرعية الدولية وحتى نظل نسيج وحدنا فى الأطار الدولى السائد..

وقد ثبت حقيقة أن الكيانات الصغيرة لم تعد قابلة للحياة وأن الجغرافيا لم تعد هى المحك فى قياس السيادة ولكن الفضاءات هى التى تتحكم فى ادارة الصراعات الاقليمية والدولية وربما ياتى وقت قريب لنسأل ما هو فضاؤك؟ .. فى أى فضاء تقع دولتك؟ وليس فى أى قارة ! .. فى القرية الكونية الصغيرة .. فالتكنولوجيا الكبيرة خلقت واقعا جديداً قضى على كثير من النظريات التقليدية والموروثات الفكرية التى عليها أن تعيد النظر فى مناهج تفكيرها وطرق حياتها حتى لا تخرج من هذا السيرك الدوار.

وهذا ما دفعنى للبدء بالحديث عن هضم حق الحدث الهام والصحيح فيما أغفله التصحيح .. حدث السلام السودانى .. النموذج الفريد والجديد .. بكل معاييره على القارة السوداء .. والقومية العربية .. والهوية الاسلاميه .. والرؤى العالمية لمستقبل الموارد الطبيعية والأهمية الاقتصادية وفوق كل هذا وذاك الجسور السياسية المعلقة بين الفضاءات الجديدة .. وأحدها الفضاء الإفريقى.

لقد أذهلنى غياب الإعلام وضعف الإعلان عن هذا الحدث الكبير والمولود الجديد .. لقد غطت أخبار لا ترقى الى مستوى الحدث اليومى على اكتشاف كوكب آخر فى قلب افريقيا .. وليس هذا من باب تضخيم الذات أو وهم التمنى ولكنه من نبض الواقع وقراءة الأحداث.

لو كان إعلامنا المحلى يقف على قلب رجل واحد .. وخطط منذ تباشير السلام لخطة إعلامية مؤسسة مدروسة من خبراء فى كل مجالات الحياة العامة .. لأسلوب المخاطبة ووسائل الطرح وطريقة الإخراج لبرامج هادفة مرحلة لصنع بنية تحتية للسلام القادم الذى ينبغى ان ينبع من وجدان الناس لا من فكر القادة فاكثرهم يأتى ويذهب ويبقى الناس .. يحملون هم هذا الوطن وأوجاع هذه الأمة.

إننى ألاحظ مع تقدير كبير للقائمين على أمر الإعلام .. وكأنهم أخذوا على حين غرة وهم يحاولون اللحاق برقاب الأحداث والإجابة على تساؤلات المشاهدين .. ولاحظت وكأنهم ما زالوا منقسمين بين مؤيد يكافح ومعارض ينافح ومتردد يتراوح بين الشك واليقين و آخرين يصدق فيهم قول أبى الطيب المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه،
وصدق ما يعتاده من توهم...

إننا دائماً نلوم الإعلام على التقصير ولكن هل بنود الاتفاقية او نصوص المفوضية أعطت الإهتمام المناسب للخطة الاعلامية فى المرحلة القادمة .. لاننا اذا لم نعط الاعلام المحلى حقه المقدر فيصعب أن يؤثر على الإعلام الإقليمي ويستحيل ان يصل الى الفضاءات العالمية إذا أردنا لمرحلة الإنتقال أن تكون سلمية تؤدي الى وحدة حقيقية فعلينا وضع خطة اعلامية تعطى الأولوية لتجميع هذا الشتات فى كيان سودانى واحد قابل للبقاء وقادر على العطاء وفاقد الشئ لا يعطية.

لقد سئل بوش الأب فى أيام حرب افغانستان فى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض قبل الانتخابات، هل تعتقد انه سيأتى يوم يدخل البيت الابيض رجل أسود ؟ فقال : نعم - ولكن بطريقة سلمية.

ربما تجاهل بوش شراسة الحرب الأهلية والصراعات العنصرية التى حدثت فى أمريكا حتى تمت اجازة الدستور الاتحادى ... وقطعا لم تكن أقل فتكا من الحرب السودانية، ولكنه اكد على الانتقال السلمى وسوف يحدث ؟. اذن فى كل تجربة ديمقراطية لا بد من تمهيد الأرض لانطلاق محركات طائرة السلام لتتلق فى فضاءات الحرية والتمهيد يأتى فى البداية من خلق أجواء تسامح ومناخ مصالحة لا تطغى عليه نزعة الاحقاد الدفينة أو الحقوق المتوهمه ولا تكون فترة الانتقال تصفية حسابات قديمة أو انتزاع حقوق مستحقة جديدة بصورة تتوهم ان ما حدث يصب فى مصلحة فئة دون أخرى.

و لنا عودة بإذن الله
دكتور الزين عباس عماره - ابوظبى